الآفاق

مجلة أسبوعية تهتم بشئون الحوزات العلمية

- السنة الثانية
- الـ ٤٢
- الإثنين
- ٢١ ربيع الثاني ١٤٤٥ هـ.ق
- ٦ نوامبر ٢٠٢٣ م
- ٨ صفحات
- ٢٠٠٠٠ ريال

غياب الاخلاق فى مجزرة غزة
| ١ | على رضا مكتب دار؛ مدير التحرير للآفاق

ثوابت العدوان في العقيدة الصهيونية
| ٨ | د. علي المؤمن

غياب الأخلاق في مجزرة غزة

تأملُ في دور الأخلاق لتنفيذ قواعد القانون الدولي الإنساني

■ بقلم: على رضا مكتب دار؛ مدير التحرير للآفاق

إن الإنسان (طيلة التأريخ) إستفحل أطماعه وغلى حرصه على إمتداد وتوسيع دائرة مملكاته، فانجر هذا الإستفحال والغليان إلى شب نيران الحروب والإشتباكات الدامية الطويلة، التي هدّمت أساس الحضارات والثقافات المتنوعة وإنجرت إلى هدم وخراب الأسر والعوائل وانتهت إلى بثّ الفقر والفساد مدى الأعصار، والحال أن الحياة تحت ظل الأمن والعافية قد كانت منذ بداية الخلقة وماتزال تكون إلى نهاية العالم، منتهى أمل الإنسان وغايته القصوى ولكن ما أفظع المحن والآلام التي أحسها الإنسان بجسده وروحه من حروب أوقد نيرانها أطماع الجفاة وشبّ لظاها حرص الطغاة على الإنسانية وما أعظم عدد الضحايا الأبرياء الذين قد نُهب أموالهم وهتك حريمهم وأريق دمائهم لكي تنال الطغاة والجفاة إلى مطامعهم الحيوانية وتخمدوا نيران غضبهم وتطفئوا هياج شهوتهم بإخماد أنوار الإنسانية.

ورغم محاولات الأنبياء والمصلحين، قد استمرّت هذه النزاعات والحروب الدامية طيلة التأريخ ولم يقصّر من نطاق الحروب المدمّرة؛ بل زاد عددها ويمكن أن يقال إن الإنسان قد شاهد حروبا كثيرة مدى التأريخ ولم يمض عليه أيام بلا حروب وإراقة الدماء أكثر من ٢٥٠ عاما مع أنه في هذه السنين القليلة أيضا كان ظلّ التهديد المشؤوم وعدم الأمن، قد أتعب وجرّح روحه. ولا ندرى، لعلّ إعجاب الملائكة عن خلقة الإنسان واستفهامهم عن الله تبارک وتعالى عن سرّ خلقة الإنسان كان منبعثا عن علمهم بوجود تلك الميزة في الإنسان التي تكون أساسا لإيقاد نيران الحروب المدمّرة التي قد ملأ ذكرها صفحات ضخمة من التأريخ، فسألوا الله تعالى: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفک الدماء». ولكن أجابهم الله تبارک وتعالى فقال: «انى اعلم ما لا تعلمون». وبحقّ نسأل، ما ذا رأى خالق الكون في وجود الإنسان فأجاب الملائكة بذلك الجواب وردّ إعتراضهم على خلقة الإنسان؟

لاشكّ أن هذا الجواب هو السرّ المكنون في خلقة الإنسان. فقد كان مسطورا في العلم الإلهي الأزلي أنه على مدى التأريخ وفي قطعات منها سيظهر أناسٌ قد أخمدوا نيران هوى السلطة والتفوّق وغضّوا أعينهم عن بروق مطامع الدنيا وعصموا أنفسهم عن الإنخداع بمفاتنها وحاولوا في طريق سعادة البشرية وجاهدوا لنيل الإنسان إلى قمّة الكمال والعزّة وبذلوا أنفسهم في هذا الطريق حتى يذيقوا أبناء البشرية طعم المحبة والمودّة والرحمة ويعيشوا بعضهم مع بعض في الكرامة والعزّة ويساعدوا بعضهم بعضا في طريق السعادة والكمال ويتجنبوا بأنفسهم عن إيقاد لظى الحرب وإسالة الدماء الزكية، المضادّة مع فطرتهم الإلهية؛ الفطرة التي ارتوت من ينبوع الفيض الإلهي وتحلّت بكل حسن وروعة. الفطرة التي جعل الإنسان مسجودا للملائكة وجعلها يذعن الملائكة بمكانة الإنسان المميزة في عالم الكون! فهؤلاء الأنبياء العظام قد أثبتوا أن القتل وسفک الدماء ليس من الصفات الذاتية للإنسان، بل الحرب والجريمة حصيلتان لطغيان أطماع البشر ووليدتان للتعسف والتوسع الذي يمارسه الطغاة ممن يحاولون جَعلَ البشرية ضحيّة لأهوائهم ومصالحهم الشخصية وأن الفطرة الإلهية الطامحة إلى كشف الحقيقة والمرتوية من ينبوع الفيض الإلهي والمتصفة بكل ما هو حسن، هي الأصيلة في الإنسان، وهي التي إستحقت وأوجبت سجود الملائكة للإنسان.

ولكن في تلك الظروف القاسية، ما يُثير الحسرة والحزن كثيرا، هو تحميل الأعباء والمحن على أكتاف الفئات التي لم تشاركوا في الحرب أو إنتهين عن المشاركة فيها وانعزلن عن الحضور في المعارک الدامية ومنهنّ النساء والأطفال وكذا الشيوخ. ومع الأسف، تلک الفئات هنّ أكثر ضحايا تلک الحروب الدامية «كما نشاهدها اليوم في غزّة» التي سببتها المطامع الشيطانية لأرباب القدرة والثروة من دون أن يكون لهن طمع في التوسّع والتحدّي مع خصومهم ولكن قد وطئت عزّتهم وكرامتهم وأهرقت دمائهم ورضّت صدور عزّهم تحت أقدام خيل هوى الجفاة والطغاة.

إن في هذه الأجواء المظلمة (على طيلة التأريخ) الفطرة البشرية السليمة قد أجبر الإنسان على رعاية حال هذه الفئات وتمهيد قوانين وقواعد عامّة لحمايتهن وحفظهن عن التحطّم تحت رُحى الحرب. ولكن مقدما على الجهود البشرية العامة لتقليل المعاناة والمحن المتوجهة إلى هذه الفئات المظلومة من قِبل شبّ لظى الحروب، هؤلاء هم الأنبياء الإلهي الذين كانوا معلموا البشر وأطبائه الروحاني، قد أرّسُوا قواعد خاصة لتحسين أوضاع طرفي المخاصمة وتواصوا الناس برعاية تلک القواعد ومستندا على الأخلاق الحسنة والجميلة الإلهية، قد مهّدوا نسخاً متناسبة لكل الأحوال والظروف على مدى الأيام قاصدا المنع أو (على الأقل) التقليل عن المضارّ والأعباء الموجهة إلى تلك الفئات غير المشاركات في معركة الحروب. فهذه هي النفخة المسيحية للأنبياء الإلهي التي يشفي أسقام أبناء آدم الروحية والجسدية. هؤلاء الأنبياء العظام الذين كانوا في قمّة الإنسانية (فكانوا خبراء بميزات الإنسان وحوائجه الأساسية) قد بنوا قواعد عامة على الأسس الأخلاقية المتجذرّة بجذور فطرية لتلبية حاجة الإنسان إبّان الحروب إصلاح أموره وكلما كان أمر الحكومة بأيديهم ما فرّطوا عن إجراء مثل هذه القواعد المبنية على الأخلاق الفاضلة في المجتمع ومن جانب آخر، كل ملة وقوم على مدى التأريخ (مبنياً على فطرتهم الإلهية) قد وضعوا قواعد وقوانين كثيرة لتحصيل غرض المذكور حتى إنتهت الأمر إلى وضع قوانين ومعاهدات دولية في مدينة جنيف في سوييسرا لحماية ضحايا الحروب الدولية تحت عنوان القانون الدولي الإنساني في أواخر القرن الثامن عشر من ميلاد المسيح عليه السلام ولكن ما كانت هذه القوانين والمعاهدات إلاّ ترجمة لنداء الضمير الإنساني وصدى الآيات السماوية المبثوثة في مطايا تعاليم الأنبياء الإلهية المنطبقة على الفطرة الإنسان الطاهرة. فبعد قرون متمادية من التحدّيات ومرور ركب الحضارة الإنسانية بمنعطفات خطيرة، وتحميل مختلف ألوان العناء والألم على الأجسام النحيفة الأبرياء، تمكّن الإنسان من صياغة ميثاق مكتوب على لوح الضمير الإنساني الناصع، وثيق الصلة بفطرته الإلهية التي قال عنها: «فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا» فقد أرسى الإسلام أساس قوانينه وأحكامه لحماية حقوق ضحايا الحروب على الفطرة السليمة الإنسانية الحاكمة بأصول الفضائل الأخلاقية التي يجب مراعاتها خلال النزاعات والحروب حتى يقلّل من نطاق الخسارات والإصابات الجسيمة التي تتوجه نحوأطراف النزاع ولاسيما الأبرياء الذين لم يشاركوا في الحرب أو اعتزلوا عنها كالنساء والأطفال والشيوخ.

إن الفحص عن المبادیء الأخلاقية لتلك القواعد والقوانين الدولية الإنسانية من منظار إسلامي على أساس آيات القرآن الكريم والسنة النبوية وكذا سيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام يرشدنا إلى أخذ موقف صحيح تجاه الحروب المدمّرة والظروف القاسية التي تفرض على الشعوب ولاسيما على الأبرياء منهم وخاصة الأطفال والنساء (كما في غزة اليوم) للحماية عنها والحفاظ على كرامتها، فنخطو خطوة إلى الأمام في انتباه أطراف النزاع لرعاية الأصول الأخلاقية المبتنية على الفطرة الإلهية بالنسبة إلى خصومهم؛ كي لايقعوا على شفا جرف هار، فانهاروا به في نار جهنمِ الحروب المدّمرة وتتلطّخ أيديهم بدم الأبرياء المظلومين الذين يتولى أمرهم الله العدل الحكيم.

ما نشاهده اليوم من الأحداث المفظعة التي تجري في مجزرة غزة، يكون أبرز أنموذج من غياب الأخلاق في الحرب، الذي جعل الكيان الصهيوني يضع قواعد القانون الدولي الإنساني تحت أقدامه الرجسة ويذبح المباديء الأخلاقية التي تلزم مراعاتها طوال الحروب على أساس تعاليم الأديان السماوية، فيهجم المحتلين على المدنيين في وطنهم العربي والإسلامي ولا يتجنب وقوع الأضرار عليهم، فيرتكب العنف والقتل الأعمى والتصعيد ويتجاوز الخطوط الحمراء، واحدة تلو أخرى.

المصدر: مقتطف عن رسالة دكتوراة للمؤلف المعنون بـ: «المباديء الأخلاقية للقانون الدولي الإنساني في الإسلام (حقوق النساء والأطفال والمسنّين أنموذجا)»